الخطاب الشعري

بين

الواقع والحلم

الشعراء والواقع الاجتماعي

الشاعر جزء من البيئة ، وكيان فاعل فيها يؤثر ، ويتأثر في حلقة مستمرة لا تنفصل ، إذ " يتأثر الشاعر بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه . . . . ، وهو في نفس الوقت يؤثر في الواقع الاجتماعي بما يصدر عنه من أشعار يتلقاها أفراد المجتمع ويتأثرون بما فيها " [1] ومعروف أن يكون هذا التأثر نسبيًا يختلف من شاعر لآخر كل يتناول الواقع الاجتماعي من وجهة نظره الخاصة .

والمتأمل شعر شعراء العصر الحديث : البارودي وشوقي وحافظ يجد صدى واضحًا للواقع الاجتماعي .

فقد تناول البارودي الواقع من حوله متمثلاً في الناحية السياسية ، وما أحاط به من ظروف أحداث الثورة العرابية مرورًا بتجربة النفي والابتعاد عن الوطن فصور ذلك أصدق تصوير .

- فقد ثار بينه وبين إخوانه من أنصار الثورة العرابية موقف كان يرى فيه أن يتمهلوا قليلاً قبل إعلان المواجهة لأنه يعلم مدى ضعف البلاد ، و أن الطامعين سيعينون الاحتلال ، لكن وجوده بينهم حال دون ذلك ، يقول [2] :

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة

وربما تاح أمر غير مظنون

١- د / مصطفي هدارة ، مشكلة السرقات في النقد الأدبي ص ٢٦١ مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٥٨ م .

٢- د / محمد زيدان ، محمود سامي البارودي رب السيف والقلم ص ٨١ المجلس القومي للشباب أغسطس ٢٠٠٩ م .

فخـــــالفوني وشـــــبوها مكـــــابرة

وكان أولـــى بقـــومي لـــو أطـــاعوني

تأتي الأمور على مـــاليس فـــي خلـــد

ويخطـــىء الظـــن بعـــض الأحـــايين

حتى إذا لم يعد فـــي الأمـــر منزعـــة

وأصبح الـــشر أمـــرًا غيـــر مكْنـــون

أجبـــت إذ هتفـــوا بـــاسمي ومـــن مـــشيمي

صـــدق الـــولاء وتحقيـــق الأظـــانين

ويقول متحسرًا على ما مر به من حياة كريمة في أيام مجده قبل النفي : [1]

لا تحـــسبن العـــيش دام لمتـــرف

هيهـــات لـــيس علـــى الزمـــان دوام

تـــأتي الـــشهور وتنتهـــي أيامهـــا

لمـــع الـــسراب وتنقـــضي الأعـــوام

والنـــاس فيمـــا بـــين ذلـــك وارد

أو صـــادر تجـــري بـــه الأيـــام

لا طـــائر ينجـــو ولا ذو مخلـــب

يبقـــى وعافيـــة النفـــوس حمـــامُ

١- المصدر نفسه ص ٦٤ .

وقال يذكر مقامه بجزيرة سرنديب :ـ [1]

ردوا على الصَّبا من عصري الخـــالي
وهل يعـــود ســـواد اللمـــة البـــالي ؟
ماضٍ من العـــيش مالاحـــت مخايلـــه
فس ســـاحة الفكـــر إلاَّ هـــاج بلبـــالي
سلَت قلوب ، فقرت فـــي مـــضاجعها
بعد الحنـــين وقلبـــي لـــيس بالـــسالي
لم يدر مـــن بـــات مـــسرورًا بلذتـــه
أني بنار الأسى مـــن هجـــره صـــالي
يا غاضـــبين علينـــا هـــل إلـــى عِـــدةٍ
بالوصـــل يـــوم أنـــاغي فيـــه إقبـــالي
غبـــتم فـــأظلم يـــومي بعـــد فـــرقتكم
وســـاء صـــنع الليـــالي بعـــد إجمـــالِ

ويقول في القصيدة نفسها :

قد كنت أحـــسبني مـــنكم علـــى ثقـــة
متى منيـــت بمـــالم يجـــر فـــي بـــالي
لم أجن في الحب ذنبًـــا أســـتحق بـــه
عتبًـــا ولكنهـــا تحريـــف أقـــوالِ

١- المصدر نفسه ص ٩٠ .

ومـــن أطـــاع رواة الـــسوء نفَّـــره
عن الـــصديق ســـماع القيـــل والقـــالِ
أدهـــى المـــصائب غـــدر قبلـــه ثقـــة
و أقـــبح الظلـــم صـــد بعـــد إقبـــالِ
لا عيب فـــيّ ســـوى حريـــة ملكـــت
أعنتـــيِ عـــن قبـــول الـــذل بالمـــالِ
تبعـــت خطـــة آبـــائي فـــسرت بهـــا
علـــــى وتيـــــرة آداب وآســـــالِ
فما يمر خيـــال الغـــدر فـــي خلـــدي
ولا تلوح ســـمات الـــشر فـــي خـــالي
قلبـــي ســـليم ونفـــسي حـــرة ويـــدي
مأمونـــة ولـــساني غيـــر ختـــالِ
لكننـــي فـــي زمـــان عـــشت مغتربًـــا
في أهلـــه حـــين قلّـــت فيـــه أمثـــالي
بلوت دهـــري فمـــا أحمـــدت ســـيرته
فـــي ســـابق مـــن لياليـــه ولا تـــالي

وواضح بيِّن ما اكتسبه البارودي من خبرة عميقة ودراية واسعة بالنفس البشرية وأطوارها وطبائعها ، وما تنطوي عليه ، يتجلي ذلك في الحِكَم الكثيرة التي ضمنها شعره فجاءت تشير إلى أصالة الشاعر وعمق تجربته بالواقع الاجتماعي الذي عاشه بحلوه ومره ، فتحدث عن تجربة الاغترَاب ، وعَّرج منها على ما أحاط من

طبائع غادرة ، وما قابله من خيانة وتبدل وتلون تأباه نفسه المستقيمة وسماته الطيبة التي ورثها عن آبائه و أجداده .

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي يرصد الواقع الاجتماعي بعين ثاقبة وعقل واع ، فوضع تاريخ مصر العريق ، وأحداثه العجيبة تحت مجهر شاعريته الفذة فأزال الغبار عن أحداث التاريخ وجعلها مجلوة واضحة أمام عين القارىء وسطرها شعرًا غنائيًا ومسرحية تاريخية حاز به قصب السبق ، ونال فضل الريادة " والدارس للشوقيات يحس بأن رؤية أمير الشعراء لمصر وواقعها الاجتماعي ، إنما هي رؤية مصر التاريخ بما وقع فيه من أحداث عبر قرون طويلة ، ومن ثم جاءت هذه الصور ممهورة بتوقيعات فرعونية ويونانية وبطلمية وقبطية وإسلامية وعربية وعثمانية "[1]

وقد بدأ أمير الشعراء شعره الغنائي متحدثا عن طوائف المجتمع راصدًا طبقاته وأفراده : المعلم ، القاضي ، العامل ، الطبيب وغيره ، يقول في فضل المعلم :[2]

قـــم للمعلـــم وفـــه التبجـــيلا
كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا
أعلمت أشـــرف أو أجـــل مـــن الـــذي
يبنـــي وينـــشيء أنفـــسًا وعقـــولا

١- محمد عويس محمد ، الواقع الاجتماعي في شعر حافظ وشوقي ، ص ٢٤٦ مجلة فصول ، المجلد الثالث العدد الثاني يناير ١٩٨٣ م .
٢- انظر الشوقيات ط ص ١٨٢ .

ثم يتوجه بالخطاب إلى المعلمين ناصحًا ومرشدًا بقوله : [1]

ربوا على الإنصاف فتيان الحمى
تجدوهم كهف الحقوق كهولا
فهو الذي يبني الطباع قويمة
وهو الذي يبني النفوس عدولا
ويقيم منطق كل أعوج منطق
ويريه رأيًا في الأمور أصيلا

ثم يتحدث عن القضاء ومكانته في المجتمع ، وما ينبغي أن يكون للقضاء من مكانة رفيعة ، لأن بهم يعتدل ميزان الكون وتستقيم أمور الحياة فيقول :

مصر بنت لقضائها
ركنًا على النجم ارتفع
فيه احتمى استقلالها
وبه تحصن وامتنع
فليهنها وليهننا
أن القضاء به اضطلع
الله صان رجاله
ممّا يدنّس أو يضع

ثم يخاطب العمال مشيدًا بما يقدمونه ناصحًا بمزيد من البذل والعطاء للمشاركة في نهضة المجتمع ، فيقول : [2]

١- المصدر نفسه ط ص ١٥٨ .
٢- المصدر نفسه ط ص ٩٠ .

أيهـــا العمـــال أفنـــوا الـــ

عمـــــر كـــــدًا واكتـــــسابا

واعمـــــروا الأرض فلـــــولا

ســـــعيكم أمـــــست يبابـــــا

أتقنـــــوا الـــــصنعة حتـــــى

تأخـــــذوا الخلـــــد اغتـــــصابا

أتقنـــــــوا يحيـــــــيكم الله

ويـــــــرفعكم جنابـــــــا

ويتحدث شوقي عن اختلاف الأحزاب فيما بينهم مبينًا أثر هذا الانقسام ومردودة على حياة الوطن ، يقول [1] :

إلام الخلـــف بيـــنكم إلامـــا

وهـــذي الـــضجة الكبـــرى علامـــا ؟

تـــراميتم فقـــال النـــاس قـــوم

إلـــى الخـــذلان أمـــرهم ترامـــى

تبـــاغيتم كـــأنكمو خلايـــا

مـــن الـــسرطان لا تجـــد الـــضماما

ثم يتحدث عن الوحدة بين عنصري الأمة (الأقباط والمسلمين) في مصر داعيًا إلى نبذ الخلاف وروح الفرقة ، والعودة إلى التآلف والتضامن ، يقول : [2]

نبيـــد كمـــا بـــادت قبائـــل قلبنـــا

ويبقي الإمام اثنـين : ميتًـا وناعيـا

١- المصدر نفسه ج ص ٢٢٢ .
٢- لمصدر نفسه ج ٤ ص ٥٥ .

تعالوا عسى نطـــوي الجفـــاء وعهـــده

وننبـــذ أســـباب الـــشقاق نواحيـــا

ألم تك (مـــصر) مهـــدنا ثـــم لحـــدنا

وبينهمـــا كانـــت لكـــل معانيـــا

ألم تك من قبل (المسيح ابن مـــريم)

(وموسى) و (طه) نعبد النيل جاريا

ومـــا زال مـــنكم أهـــل ود ورحمـــة

و في المسلمين الخير مـــا زال باقيـــا

وهو لا ينسى دوره والتزامه بالقيم والأخلاق ، فلا ينفك يدعو إليها ويحث الأجيال على التحلي بالخلق القويم كوسيلة لإصلاح الأجيال التي هي عماد المستقبل ، يقول : [1]

و إنمـــا الأمـــم الأخـــلاق مـــا بقيـــت

فإن تولت مـــضوا فـــي إثرهـــا قـــدما

فما على المرء في الأخلاق من حـــرج

إذا رعـــى صـــلة فـــي الله أو رحمـــا

وهكذا يتنقل شوقي في ربوع المجتمع يرصد قضاياه ، ويسجلها ، من دعوة إلى الإصلاح ، إلى وصف حريق ميت غمر ، إلى رصد لأحوال الفقراء وغيرهم من طبقات المجتمع مثبتًا بذلك أن الشاعر الملتزم جزء لا يتجزأ من البيئة التي يعيش فيها .

١- الشوقيات جـ ١ ص ٢١٧ .

وكان الشاعر حافظ إبراهيم أكثر التصاقًا بمجتمعه فلم يترك واحدة من قضايا المجتمع دون رصد ، ولعل ذلك لطبيعة نشأته ، حيث عانى كثيرًا من أيام البؤس والشقاء ، على العكس من شوقي الذي نشأ في رغد وسعة من العيش حتى تغيرت حياته بعد النفي إلى الأندلس .

لقد كانت قضايا مجتمعه هي شاغلة الأول ، حتى احتلت معظم شعره ، يقول مبينًا دعائم التقدم والإصلاح – كما يراها – في قصيدته التي نظمها في استقبال السير غورست : [1]

إذا استوزرت فاستوزر علينا
فتى (كالفضل) أو (كابن العميد)
ولا تثقل مطاه بمستشار
يحيد به عن القصد الحميد

ويقول داعيًا إلى إنشاء الجامعة :

و أسعدنا بجامعة وشيِّد
لنا من مجد دولتك المشيد
وإن أنعمت بالإصلاح فابدأ
بتلك فإنها بيت القصيد

ويبين مدى ما يعانيه الناس من شقاء وتعب في طول البلاد وعرضها ، داعيًا إلى إصلاح الحال بقوله :

١- ديوان حافظ إبراهيم جـ ٢ / ص ٣٥ ، ٣٦ .

إذا مـــا نـــاح فـــي (أســـوان) بـــاك
سمعت أنـــين شـــاك فـــي (رشـــيد)
جميـــع النـــاس فـــي البلـــوى ســـواء
بـــأدني الثغـــر أو أعلـــى الـــصعيد
تـــدارك أمـــة بالـــشرق أمـــست
علـــى الأيـــام عـــاثرة الجـــدود

وكما دعا شوقي إلى ائتلاف الأحزاب ونبذ الخلافات ، كانت دعوة حافظ إبراهيم إلى التضامن في مواجهة المحتل ، يقول : [1]

(فيا قـــصر الـــدوبارة) لـــست أدري
أحـــرب فـــي جرابـــك أم ســـلام
أجبنـــا هـــل يـــراد بنـــا وراء
فنقـــضي أم يـــراد بنـــا أمـــام
ويـــا حـــزب اليمـــين إليـــك عنـــا
لقـــد طاشـــت نبالـــك والـــسهام
ويـــا حـــزب الـــشمال عليـــك منـــا
و مـــن أبنـــاء نجـــدتك الـــسلام

وها هو يرصد الظواهر في مجتمعه ، فيرى عادة الخمول والتواكل فيهب داعيًا إلى العمل والانطلاق ونبذ الكسل والتواكل ، يقول : [2]

١- ديوان حافظ جـ ٢ ص ٥٧ .
٢- ديوان حافظ جـ ١ ص ٥٥ .

كاشـــف الكهربـــاء ليتـــك تعنـــى
بـــاختراع يـــروض منـــا الطباعـــا
آلـــة تـــسحق التواكـــل فـــي الـــشر
ق وتلقـــي عـــن الريـــاء القناعـــا
قـــد مللنـــا وقوفنـــا فيـــه نبكـــي
حـــسبًا زائـــلاً وجـــدًا مـــضاعا
إن فينـــا لـــولا التخـــاذل أبطـــا
لاً إذا مـــا هـــم اســـتقلوا اليراعـــا
وعقـــولاً لـــولا الخمـــول تـــولا
هـــا لفاضـــت غرابـــة وابتـــداعا

وتستمر مسيرة الشعر مع المجتمع و أحداثه ، وتظل رسالة الشاعر باقية متمثلة في هموم نفسه ووطنه والواقع الذي يحياه ، ويبقى القصيد شاهدًا عبر العصور ولولا هذه الرسالة – رسالة الشعر – ما أحطنا علمًا بأخبار الجاهليين ، وأيام العرب ووقائعهم .

الشعراء والحلم

كثيرة هي أحلام الشعراء ، وكثيرة طموحاتهم ، يذهبون بالخيال إلى حيث لا يتصور الإنسان ، ويحلقون إلى أبعد ما تتصور العينان وذلك مرده إلى أن الشعر مبني على التخيل ، ولا ينال الاستحسان إلا إذا جّملة التصوير والبيان .

وفي طيات كتب الأدب كثير من تطلعات الشعراء و أحلامهم التي ينسجونها من خيوط شعرهم وشاعريتهم .

لقد عاش جبران خليل جبران حلم المدينة الفاضلة التي أطلق عليها البلاد المحجوبة ونسج لنا خيوط الحلم ، فرأينا مدينة يحتل فيها العقل المرتبة الأولى ، ويقطنها الفلاسفة الذين يتغنون بالجمال والحق ، وهي بلاد غائبة عنا لأنها لا توجد إلا في خيال الشعراء ، يقول : [1]

هو ذا الفجر فقومي ننصرف
عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف
زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف
مع قلوب كل ما فيها عتيق
هو ذا الصبح ينادي فاسمعي
وهلمي نقتفي خطواته
قد كفانا من مساء يدعي
أن نور الصبح من آياته

* * * *

١- البدائع والطرائف ، جبران خليل جبران – مطبعة يوسف كوى بمصر ١٩٢٣ م .

قـــد أقمنـــا العمـــر فـــي واد تـــسر
بـــين ضـــلعيه خيـــالات الهمـــوم
وشـــهدنا اليـــأس أســـرابًا تطيـــر
فـــوق متنيـــه كعقبـــان وبـــوم
وشـــربنا الـــسقم مـــن مـــاء الغـــدير
و أكلنـــا الـــسم مـــن فـــج الكـــروم
ولبـــسنا الـــصبر ثوبًـــا فالتهـــب
فغـــــدونا نتـــــردى بالرمـــــاد
وافترشـــــناه وســـــادًا فانقلـــــب
عنـــدما نمتـــا هـــشيما وقتـــاد
يـــا بـــلادًا حجبـــت منـــذ الأزل
كيف نرجوك ومـــن أيـــن الـــسبيل ؟
أي قفـــــر دونهـــــا أي جبـــــل
سورها العـــالي ومـــن أيـــن الـــدليل؟
أســـراب أنـــت أم أنـــت الأمـــل
فـــي نفـــوس تتمنـــى المـــستحيل
أمنـــام يتهـــادي فـــي القلـــوب
فـــإذا مـــا اســـتيقظت ولـــى المنـــام
أم غيوم طفن فـــي شـــمس الغـــروب
قبل أن يغـــرقن فـــي بحـــر الظـــلام

* * * * * *

يـــا بـــلاد الفكـــر يـــا مهـــد الألـــى
عبـــدوا الحـــق وصـــلوا للجمـــال
مـــا طلبنـــاك يركـــب أو علـــى
مـــتن ســـفن أو بخيـــل ورحـــال
لـــست فـــي الـــشرق ولا الغـــرب ولا
في جنوب الأرض أو نحـــو الـــشمال
لست فـــي البـــر ولا تحـــت البحـــار
لست في السهل ولا الـــوعر الحـــرج
أنـــت فـــي الأرواح أنـــوار ونـــار
أنـــت فـــي صـــدري فـــؤاد يخـــتلج

إنه يبحث عن الأمن والسعادة ، ينشدها ولكن من خلال الحلم بعالم يتحقق فيه الخير والحق والجمال . . وتلك عادة الإنسان يحقق في الخيال والحلم ما لم يتمكن من حقيقه في الواقع .

والقصيدة تبدأ بحوار يجريه الشاعر مع نفسه الحائرة ، يطلب منها سرعة الانطلاق والفرار من هذا الواقع المؤلم ، والابتعاد عن هذا العالم الذي لم يجد فيه صديقًا يأنس إليه ، ويأوى إلى واحة صداقته ، يطلب منها الابتعاد عن هذا العالم الذي لم يجد فيه مودة أو علاقة تربطه بمن يحيطون به فكل شيء في هذا الكون غريب على نفسه وعقله ووجدانه ، كل شيء فيه يخفي خلفه الشر والألم ويبين الشاعر أنه حاول الصبر على ما في الكون من شقاء وتعب فلم ينفعه الصبر ولم يجد شيئًا ، حاول أن يتخذه ثوبًا فالتهب واشتعل وصار حريقًا واستحال رمادًا فصار

الشاعر يتردى بالرماد واتخذه وسادة عند نومه فاستحالت الوسادة هشيمًا وقتادا لذا صار الشاعر قلقًا وأخذ يبحث عن المأوى والملجأ فوجد المأوى في خياله ، وراح ينسج حلمًا جميلاً لبلاد مثالية حجبت عنه منذ الأزل ، وراح يبحث عنها في كل مكان ، ويسير وراءها في كل مقصد : في القفار وفي الجبال والوديان وفي ساحات الوهم وفوق تلال الخيال ، حتى تعب و أعياه البحث ، وأخذ منه الشقاء كل مأخذ ، فليس هناك الدليل الذي يرشده ويأخذ بيده ، وراح يتساءل عن كنه هذه البلاد التي يبحث عنها ، أهي سراب ؟ لأنها لا وجود لها في الواقع ، وهل هي أمل في تلك النفوس التي تتوق إليها - وهي بذلك تتمنى المستحيل - أم أنها حلم يراود الأرواح ويداعبها وسرعان ما يتلاشي عند ما يستيقظ الإنسان ؟ أم أنها سحابات وغيوم تختفي خلف أشعة الشمس ثم تتلاشي في تلال الظلمات الكثيفة .

وفي النهاية يفيق الشاعر على الحقيقة المرة ، وهي أن هذه البلاد لا وجود لها في الواقع إنما هي مجرد حلم لا هي في الشرق ولا في الغرب ولا في جنوب الكون أو شماله وليست في الجو - أيضًا - ولا في البحار ولا في السهول ولا الوعور ، ولكنها كائنة في أعماق الروح مجرد فكرة وضياءً يبدد ظلمات اليأس والشقاء والقصيدة في مجملها صورة لانطلاق الشاعر بخياله ليحلم وينسج عالمًا من الخير والحق والجمال" ومن الطبيعي أن الإنسان حينما تستضيء روحه بالمعرفة ، وتنفعل نفسه بكل قيم الحق والخير ، ثم يرى حياة الناس من حوله تتخبط في ظلمات الجهالة والحيرة، وتستبد بها نوازع الشر والأنانية ، فإنه حينئذ سيشعر بالغربة النفسية ، وبأنه يعيش في عالم تسوده أحقاد البشر وأطماعهم ، وأن لا سبيل إلى السعادة والطمأنينة إلا بالفرار من هذا العالم ، وهنا تسرح روحه في آفاق عالمها المثالي فتحلم

بالجمهورية الفاضلة والجنة الضائعة والفردوس المفقود ، تحلم بعالم لا يسوده إلا الخير ، ولا يرى الإنسان فيه إلا المحبة " [1]

. . هكذا يرى الشاعر ملاذه في الحلم عندما لم يغنه الواقع ولم يحقق له الأمن والسعادة ، ففي تأملاته ما ينشد ، وفي خياله ما يأمل ، وتلك طبيعة الشعر ينسج الشاعر من خيوط خيالاته ما يحقق له الخير في عالم لم يجن منه إلا التعب والشقاء .

وقد عاش الشاعر إيليا أبو ماضي الحلم نفسه في قصيدته : (الغابة المفقودة) حيث يرى النعيم الدائم الذي ينشده الإنسان حيث يجد فيه رغد العيش وصفاء الحياة ، فما أشبه الحياة في هذه (الغابة المفقودة) بالمدينة الفاضلة لأفلاطون وبلاد جبران خليل جبران المحجوبة .

إن هذه الغابة المفقودة ليس فيها إلاّ الخير المحض ، لا يرنق صفوها حقد ، ولا يلوثها غدر ، ولا ينقص من صفائها طمع ولا تكدرها كراهية ، ليس فيها إلا الجمال المطلق بكل معانيه أينما يمم الإنسان وجهة لا يلمح إلا الجمال والجلال والنقاء ، لا تقع عينه فيها على قبيح ، ولا يجد فيها غولاً ولا تأثيما .

" إنه يتخذ من نفسه رمزًا للإنسانية كلها ، ومن الغاية رمزًا لعالم الخير الذي تتحقق فيه أحلام الإنسان و أمانيه في ظلال وارفة من الأمن والطمأنينة . . . ولم تنقطع روافد السعادة الحقيقية إلاّ منذ أن امتدت يد الإنسان للعبث بهذه الفطرة النقية ، نظرة الطبيعة السمحة التي صاغها الله من كل معاني الجمال والخير ، لتكون مهبط الحياة الرافهة السعيدة لبني الإنسان " [2]

١- حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق ، د / عبد الحكيم بلبع ، ص ٢٠٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م .
٢- المصدر السابق نفسه ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

يقول إيليا أبو ماضي في قصيدة (الغابة المفقودة)[1] :

لله فـــــي الغابـــــة أيامنـــــا
ماعـــــا بهـــــا إلاّ تلاشـــــيها
طـــورًا علينـــا ظـــل أدواحهـــا
وتـــــارة عطـــــف دواليهـــــا
وتـــــارة نلهـــــو بأعـــــشابها
وتـــــارة نحـــــصي أقاحيهـــــا
تـــسكت إن نـــشكو شـــحاريرها
كأنمـــــا التغريـــــد يؤذيهـــــا
وإن تـــضاحكنا ســـمعنا الـــصدى
يـــضحك معنـــا فـــي أقاحيهـــا
و إن مـــــشينا فـــــوق كثبانهـــــا
لاحـــــت فـــــشاقتنا أدانيهـــــا
وفوقنـــــا الأغـــــصان معقـــــودة
ذوائـــــب طـــــال تـــــدليها
لا غـــابتي اليـــوم كعهـــدي بهـــا
ولا التـــــي أحببتهـــــا فيهـــــا
ولا النـــــدى در علـــــى عـــــشبها
ولا الأقـــــاحي فـــــي روابيهـــــا

١- ديوان الخمائل د . إيليا أبو ماضي ص ١٥٦ وما بعدها .

ولا الـــضحى يلقـــي علـــى أرضـــها
شـــــباك تبـــــر مـــــن أعاليهـــــا
أهبطنـــــي أمـــــسي إلـــــى حـــــضنها
شـــــوقي إلـــــى ســـــجع قماريهـــــا
فلـــــــم تخمـــــــشني بأوراقهـــــــا
ولـــــم تهطـــــل لـــــي ســـــواقيها
قـــــد بـــــدل الإنـــــسان أطوارهـــــا
واغتـــــصب الطيـــــر مآويهـــــا
وفـــــت بالبـــــارود جلمودهـــــا
واجتـــــث بالفـــــاس دواليهـــــا
وشـــــاد مـــــن أحجارهـــــا قريـــــة
ســـــكانها النـــــاس وأهلوهـــــا

والغابة هي مسرح الحلم الذي راود الشاعر وعبر عن مضمونه ، لذلك كان المسرح يضم الزهر والعطر والطير إلى جانب الجداول والكثبان والغدران ، وبرزت مهارة الشاعر ومقدرته في إبراز هذه المفردات ليملأ نفس القارىء بالشوق والحنين والرغبة في الوصول إلى هذه الحياة الطليقة الرغدة .

لكن الشاعر يفيق من حلمه السعيد ليقف على الحقيقة المرة ، وعندما يبين أن غابته ليست كما عهدها من أمن وطمأنينة إذ تغير حالها فلم تعد كما كانت فلم يعد للندى أثر على عشبها ولا الزهور تزين روابيها وما عاد الضحى يلقي ضياءه على

أرضها ، ولم يسمع تغريد طيورها حيث امتدت إليها يد الإنسان بالتغيير والتدمير والتلويث فبدد صفاءها ونقاءها .

ولكن في النهاية يبقى الحلم ، ويبقي لجوء الشاعر إليه هربًا من دنيا الواقع المؤلمة حتى ولو لم يتحقق الحلم إلا أنه يكفي أن عاش فيه واستمتع بنسيجه العذب.